تعليم اللغة العربية في باكستان لفهم القرآن

الدكتور محمد علي غوري *

إن اختلاف ألسنة الناس من آيات الله تعالى. يقول الله عز وجل:﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[1]. كما فضل الله أماكن على أماكن حين قال رسوله الأمين: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد." رواه الشيخان، وكما فضل الله أياماً على أيام، حين فضل يوم الجمعة على بقية الأيام، كذلك فضل اللغة العربية على غيرها من اللغات، فاختارها لغة لكتابه عزّ وجل الخالد الذي تكفل بحفظه إلى قيام الساعة حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2] ، وهي لغة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم التي بلغ بها دعوة ربه العظيمة في ثوبها الأخير، وقد كتب بهذه اللغة تراث ضخم منطلقاً من القرآن والسنة لم يكتب مثله في أية لغة أخرى.

لو تدبرنا في أمر لغات العالم قاطبة لا نكاد نجد لغة منها بقيت على حالها أكثر من مائة سنة دون أن يصيبها تغيير أو تبديل سوى اللغة العربية، وكيف تتغير أو تتبدل وهي يتلى بها آناء الليل وأطراف النهار في أرجاء المعمورة كلها.

وتتميز اللغة العربية بخصائص فريدة أهمها أن الله شرفها بإنزال كتابه الخالد بها للبشرية قاطبة عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم أفصح العرب، وذلك حين قال: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش." أخرجه الطبراني.

ثمة حقيقة ثابتة أثبتها الواقع والتاريخ وهي أن كل اللغات ترتبط بحضارات أهلها وثقافاتهم وتقاليدهم، وأن اللغة والحضارة يتناسبان تناسباً طردياً، أي أن اللغة ظاهرة اجتماعية قبل أن تكون ظاهرة لغوية، تعيش مع المجتمع، فتضعف بضعفه وتقوى إذا قوي. وهكذا كان الحال مع اللغة العربية، فقد كانت في بداية عهدها لغة بسيطة محدودة في جزيرة العرب لا يأبه بها ولا بأصحابها أحد، لأن المجتمع العربي نفسه لم يكن يملك أسباب الحضارة كما كانت تملكها الدول المجاورة، وحين شرفها الله بأن تكون لغة القرآن الكريم ولغة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتسعت رقعة العالم الإسلامي ونشأت الحضارة الإسلامية وظهرت العلوم الكثيرة بها، وتحقق التقدم فيها، أصبح لهذه اللغة شأن آخر، فاتسعت واحتوت كل تلك العلوم وأسباب الحضارة التي سادت بها العالم آنذاك.

---

* الأستاذ المشارك ورئيس مركز اللغة العربية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد، باكستان.

أهمية اللغة العربية كلغة دينية

أدرك المسلمون أهمية اللغة العربية لكونها لغة كتاب ربهم، فسارعوا إلى دراستها والاهتمام بها، وحين انتشر الإسلام في أنحاء المعمورة في البلاد المفتوحة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وخاصة من غير العرب، شاع اللحن، فسارع المسلمون الأوائل إلى ضبط المصحف ووضع علم النحو والصرف وغيرها من علوم العربية. إذن كان الدافع الديني –أكثر من غيره– وراء الاهتمام باللغة العربية وتطورها وازدهارها وانتشارها في كل العالم. يقول أبو منصور الثعالبي: "من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل والإسلام خير الملل والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعايش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل، والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب كينبوع للماء والزند للنار"[3].

وتتميز اللغة العربية بين اللغات الأخرى بمكانة خاصة أهلتها لأن تكون وعاءً لأعظم كتاب أنزله رب العالمين.

كانت اللغة العربية قوية حين كان أصحابها أقوياء، وحين ضعفوا وتفككوا وأصبحوا دويلات وبلدان، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحون، تآمر أعداء الإسلام عليهم وتقاسموهم فيما بينهم، وتداعوا عليهم كما يتداعى الأكلة إلى قصعتهم، وفتّوا في عضدهم، وقد كانوا يتحينون كل فرصة سانحة لينقضوا عليهم منذ زمن الحملات الصليبية حتى الآن مروراً بفترة الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين. وكان طمس اللغة العربية ومحاربتها من أهم أسلحة الاستعمار لتحقيق أهدافه الخبيثة، ليحول بين المسلمين ودينهم المرتبط بهذه اللغة ارتباطاً لا ينفك. وهذا ما حدث في كثير من البلاد الإسلامية ومنها شبه القارة الهندية التي كانت تخضع كلها لحكم المسلمين قبل الاستعمار أو الاستخراب الإنجليزي عام 1858م، وحين خرج منها بعد حكم دام قرابة مائة عام، وذلك في عام 1947م كان المسلمون قد أصبحوا أضعف الأقوام والأمم وأفقرها، بينما حظي الهندوس بمكانة خاصة في العهد الإنجليزي.

كما أن الاهتمام باللغة العربية من قبل المسلمين –من العرب ومن غير العرب– كان لدوافع دينية، فكذلك كانت أهداف الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين دينية محضة، وإن بدت اقتصادية أو سياسية حسب الظاهر.

بداية يجب أن نفهم جيداً أن اللغة العربية هي لغة الإسلام والمسلمين وليست خاصة بالعرب، فهي لغة الدين الذي أدان به الناس في الشرق والغرب؛ من العرب ومن غيرهم. وعندما فتحت البلاد المختلفة من مصر والشام والعراق والأندلس دخل أهلها في الإسلام، وأقبلوا على اللغة العربية يتعلمونها حباً في الدين الذي أنقذهم من الضلال ونقلهم من الظلمات إلى النور، فكان منهم أمثال عبد القاهر الجرجاني وسيبويه والخوارزمي والجاحظ والقرطاجني وآخرون اهتموا بهذه اللغة اهتماماً كبيراً، وأصبحوا حجة فيها يرجع إليهم في تخصصاتهم حتى العرب أنفسهم، وبرز منهم أئمة في التفسير والحديث والفقه والأدب وما إلى ذلك.

تاريخ اللغة العربية في شبه القارة الهندية

إن اللغة العربية من شعائر الإسلام التي أُمر المسلمون بالمحافظة عليها، وقد عدها الإسلام من تقوى القلوب، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[4]، وبناء على ذلك أصبحت المحافظة عليها مسئولية كل مسلم من العرب ومن غيرهم.

تعد الهند واحدة من بلاد العالم التي وصلها الإسلام مبكراً عبر الفتوحات الإسلامية الأولى وعبر العلاقات التجارية البرية والبحرية، فقد فتحها القائد المسلم الشاب محمد بن القاسم الثقفي أثناء ولاية عمه الحجاج بن يوسف الثقفي عام 92هـ، وسيطر على بعض الأجزاء من الهند، ثم توسعت الفتوحات في زمن الأمويين والعباسيين فيما بعد. ولكن هذه الفتوحات توقفت بمجيء الخليفة العباسي المهدي، حين اشتد النزاع بين القبائل العربية التي هاجرت إلى هذه البلاد خلال المائة الأولى من دخول الإسلام فيها، ورغم ذلك استمرت الدعوة الإسلامية، واستمر الإسلام ينتشر فيها عن طريق التجار المسلمين، الذين كانوا تجاراً ودعاة في نفس الوقت، وجذور العلاقات التجارية بين الهند والعرب قديمة جداً تعود إلى ما قبل الفتح بمئات السنين. بعد الفتح استقرت الثقافة الإسلامية في المنطقة بشكل رسمي في أرجاء كثيرة من الهند، وكانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للحكام، وفي المراكز العلمية التي سرعان ما انتشرت في المناطق المفتوحة، وهي أصل ما يعرف اليوم بالمدارس الدينية. بدأ استخدام اللغة العربية في الهند منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي للهند، وأول نقش عثر عليه في الهند هو نقش المسجد الجامع في مدينة "بنهور" بالسند المؤرخ عام 107هـ استخدم فيه الخط العربي[5]. كانت اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولسان الدعوة الإسلامية وكذلك لغة المنتصر في ذلك الزمان، فكان من الطبيعي أن تنتشر مع انتشار الإسلام وتعاليمه الراقية في المناطق المفتوحة، وكما انتشر الإسلام انتشرت اللغة العربية على نطاق واسع بين سكان البلاد، فقد كان الهنود الذين أسلموا يتحدثون مع العرب باللغة العربية، كما كانوا يرتدون زي العرب، ويحاولون تقليدهم في أمور كثيرة حباً في الدين الإسلامي. يقول الإصطخري: "ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية والسندية"[6]. ويؤكد الأستاذ خورشيد أشرف إقبال الندوي أن انتشار اللغة العربية في الهند على نطاق واسع كان في القرن

الرابع الهجري حين وصلت أسر مثل المماليك والخلجيين والتغلقيين والسادات واللودهيين إلى سدة الحكم في الهند. وتمتاز فترة حكم هذه الأسر بتقدم ملموس في تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، حيث عنى كثير من ملوكها وأمرائها بتأسيس المدارس ومراكز التعليم، وبذل العلماء جهوداً جبارة في توسيع نطاق اللغة العربية حرصاً على لغة القرآن والسنة، فأثمرت جهودهم وأتت بنتائج مبشرة[7] وكان لجهودهم هذه آثار عظيمة ودور كبير في نشر اللغة العربية في ربوع تلك البلاد.

قام المسلمون في شبه القارة الهندية بدور كبير في المحافظة على لغة القرآن، فقدموا للعالم الإسلامي تحفاً علمية نادرة وعظيمة بهذه اللغة العظيمة، ولم يكن اعتناؤهم بها أقل من غيرهم، فمنذ أن دخل الإسلام في هذه البقاع أخذت اللغة العربية تكتسح الساحات فيها، وأخذت كل يوم تكسب أرضاً جديدة على حساب اللغات المحلية الموجودة قبلها. اضمحلت كل اللغات المحلية أمام اللغة العربية في البلاد المفتوحة، حتى أن كثيراً من مناطق السند والبنجاب الغربيتين كان أهلها يتحدثون بهذه اللغة وكانت فيها مراكز علمية كبيرة وكثيرة. يتحدث الدكتور نبيل فولي عن الوضع في شبه القارة الهندية فيقول: "لكن العربية بقيت في كل الأحوال لغة العلوم الدينية والدنيوية الأولى طوال فترات التفوق الحضاري للمسلمين، وكانت تصنع لنفسها في بعض المناطق خنادق خاصة بها في أوساط العلماء والطلاب وسط خضم من اللغات الأعجمية التي تأثرت بها تأثراً لم يتوقف عند حدود استعارة الألفاظ، بل استعارت منها ألواناً أدبية متعددة أيضاً".[8] كثرت المؤلفات العربية لعلماء شبه القارة الهندية بشكل ملفت للنظر في العلوم الشرعية والعربية، فظهرت شروح الصحاح الستة وغيرها من كتب الحديث وبعض المؤلفات في بعض المسائل الفقهية الدقيقة، كما أنجبت شبه القارة شعراء نظموا الشعر بالعربية. ولكن الذي يدعو إلى الأسف أن اللغة العربية لم تصبح لغة البلاد كما أصبحت لغة أهل مصر والشام والعراق وحتى بلاد الأندلس البعيدة، وكان ذلك لأسباب كثيرة أهمها عدم استيطان الفاتحين العرب لهذه المنطقة كما استوطنوا العراق ومصر والشام وشمال إفريقيا وحتى الأندلس البعيدة عن جزيرة العرب لجمال الطبيعة في هذه المناطق ولصعوبة الجو وحرارته في السند وجنوب البنجاب التي فتحها العرب وحكموها منذ أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي، فكانت الجيوش العربية الفاتحة تبقى في الهند بضعة أشهر ثم ترجع إلى جزيرة العرب ليأتي غيرهم، وهكذا كانوا يتناوبون البقاء فيها، ولم يتخذوها موطناً لهم يستقرون فيها. يقول الدكتور نبيل: "حين انطلق الإسلام في أرجاء العالم التي سعدت به لم ينطلق وحده بل أخذ اللغة العربية في صحبته، يتلى بها القرآن الكريم، وتروى بها السنة الشريفة، ويتخاطب بها الفاتحون، ولولا السياسة وتقلباتها وأمور أخرى تتعلق بضعف كثافة الهجرات العربية وتغير لغة الفاتحين في الأجيال التالية لتعربت مناطق من العالم أكثر اتساعاً مما نجد الآن".[9] ومن أسباب عدم تمكن العربية من شبه القارة الهندية منافسة اللغة الفارسية لها، فحين جاء المغول من أفغانستان وإيران عملوا على نشر اللغة الفارسية، وكان ذلك

على حساب اللغات الأخرى، ومنها اللغة العربية. ثم ظهور اللغة الأردية المائلة إلى السهولة، وكانت نتيجة اختلاط لغات كثيرة أهمها الفارسية –التي تعد أم الأردية– والسنسكريتية –وهي لغة الهند القديمة– والتركية والعربية، وكلمة "أردو" تعني "معسكر" باللغة التركية. وأخيراً اللغة الإنجليزية التي دخلت بقوة مع دخول الاستعمار البريطاني للبلاد، وهذا الاستعمار حارب اللغة العربية إبان فترة احتلاله الغاشم، وأبعد أصحاب الثقافة الإسلامية ومن كانت لديه خلفية في اللغة العربية من المجالات الحيوية، وخاصة من مجال التعليم والقضاء، وقدموا عليهم أصحاب الثقافة الغربية ومن كانت لديه خلفية في اللغة الإنجليزية، وتأثير ذلك باق إلى يومنا هذا، فمن يجيد اللغة الإنجليزية اليوم في باكستان يجد عملاً بسهولة، كما يحظى بمكانة لا يحظى بها الآخرون ممن لا يجيدونها، أما العربية فأصبحت –كما يقال– لا تطعم خبزاً. ورغم هذا فقد أقيمت مراكز علمية كثيرة في مناطق متعددة من شبه القارة الهندية تهتم باللغة العربية؛ لغة القرآن، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. وأصبحت هذه المراكز العلمية فيما بعد تعرف بالمدارس الدينية، أو ما يسمى عندنا بـ"درس نظامي"، وكانت هذه المدارس تهتم بالعربية إلى جانب الفارسية والأردية الناشئة، فكانت تدرس فيها مواد النحو والصرف والبلاغة والأدب وبعض المواد الأخرى المتعلقة بالعربية مثل الترجمة، إلى جانب العلوم الدينية مثل التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وما إلى ذلك، حيث تقرأ متونها بالعربية ثم تشرح باللغات المحلية المختلفة، لذلك بقيت اللغة العربية وسيلة لفهم الكتاب والسنة وكتب التراث، ولكنها لم تصبح لغة التخاطب. وهكذا بقيت بعيدة عن عامة الشعب الذي كانت تتنازعه لغات محلية كثيرة. وبقي الحال على هذا المنوال حتى دخل الاستعمار البلاد وفتح المدارس العصرية التي تدرس العلوم الحديثة واللغة الإنجليزية في طول البلاد وعرضها، وأخذت هذه المدارس مع الزمن تنافس المدارس الدينية، بل سحبت البساط من تحتها لأسباب كثيرة منها تقصير المسلمين في شبه القارة الهندية وضعفهم، حيث كانت المناهج المعتمدة في تدريس العلوم الدينية واللغة العربية في هذه المدارس قد تقادم عليها العهد، وأكل عليها الدهر وشرب، فكان ذلك من أسباب تأخر المسلمين في هذه البلاد، ولأجل ذلك أشيع بينهم أن اللغة العربية صعبة فقصروا في تعلمها وأهملوها. وحين دعا المستعمر البريطاني الشعب الهندي إلى تعلم اللغة الإنجليزية صدرت بعض الفتاوى التي تدعو المسلمين إلى عدم تعلمها، وأجازوا للبعض بأن يتعلمها ليأمنوا مكر الإنجليز الذين كانوا يتربصون بأهل البلاد وخاصة بالمسلمين الدوائر، أما أن ينصرف الناس جميعاً إلى تعلم هذه اللغة ففي ذلك خطر كبير على كيان الأمة الإسلامية، لأن اللغات في نظر هؤلاء –وهذا حق– ليست مجردة، فهي تحمل معها عقائدها وعاداتها وتقاليدها التي نشأت تلك اللغات في ظلها، فإذا انكب المسلمون جميعاً على هذه اللغة يتعلمونها دخلت العقائد الغربية وعاداتهم وتقاليدهم المتصلة بها إلى عقر دارنا من أوسع أبوابها، والأمة التي تفرط في لغتها تفرط في أساس وجودها، لأن اللغات أوعية لثقافات أهلها وحضاراتهم. وما حدث بعد ذلك يؤكد أهمية تلك الفتاوى ويبررها ويبرز وعي أولئك العلماء بحقائق الواقع، ويكشف عن نظرتهم الثاقبة للمستقبل.

ويحس كثير من الباكستانيين في الآونة الأخيرة بأهمية التحدث بالعربية من أجل التواصل مع إخواننا العرب، وخاصة بعد حضورهم المكثف للاشتراك في الجهاد في جبهة أفغانستان، فظهرت كتيبات تركز على تعليم اللغة العربية محادثة، ولكن أغلبها لم يصل إلى المستوى اللائق أو الملائم لتحقيق الهدف المنشود، لأسباب كثيرة أهمها أن الذين قاموا بتأليف هذه الكتيبات لم يكونوا مؤهلين لهذا العمل، وذلك لأن بعضهم كان من العرب الذين لا يعرفون طبيعة البلد ولا عاداتهم اللغوية والاجتماعية ولا طرق تفكيرهم، فلذلك ألفوا تلك الكتيبات لأغراض عامة غير مفرقين بين المستويات المختلفة للمتعلمين، ودون اعتبار للغة المتعلمين الأصلية أو الأم، وأغلب هذه الكتيبات ألفت في البلاد العربية، ثم نقلت إلى شبه القارة الهندية الباكستانية. وبعض الذين ألفوا مثل هذه الكتيبات كانوا من أهل شبه القارة من الهنود والباكستانيين، وهؤلاء رغم معرفتهم لمشاكل أهل هذه البلاد وطبيعتهم وعاداتهم اللغوية وتقاليدهم الاجتماعية، فإنهم كانوا أنفسهم يعانون من ضعف في التحدث بالعربية وفي إخراج الحروف العربية من مخارجها، وفاقد الشيء لا يعطيه كما نعلم. وهكذا لم تغن هذه الكتيبات ولم ترفع مستوى التحدث بالعربية بقدر ما حققه الاتصال المباشر والممارسة العملية لهذه اللغة مع أهلها من خلال الاتصال بهم في بلادهم بعد أن سافر كثير من الباكستانيين إلى البلاد العربية وخاصة بلاد الخليج بحثاً عن أسباب الرزق وطلباً لتحسين المعيشة، وكانت حكومة ذوالفقار على بوتو رئيس حزب الشعب قد فتحت الباب أمام هؤلاء ليخرجوا من البلاد للعمل في الدول الأخرى، وخاصة في دول الخليج العربي. ومن أشكال الاتصال المباشر الاتصال بهم في باكستان نفسها وخاصة في المناطق الشمالية بعد قدومهم المكثف إثر اشتعال الثورة واندلاعها في أفغانستان ضد الاحتلال الروسي، وهذا الاتصال أيضاً لم يحقق المستوى المناسب حيث غلبت عليه اللهجات العامية.

خلاصة القول في هذا الشأن أن الكتب التي ألفت في باكستان بهدف تعلم التحدث باللغة العربية لم تكن مناسبة ولم تحقق الهدف المطلوب منها لأنها لم تراع أصول تعليم اللغات ولا طرق تعليمها، ولم تضع نصب عينها الأغراض الخاصة التي تهتم بها الدراسات الحديثة، ثم كما ذكرت لم تصدر عن مؤهلين لهذا الغرض الخاص.

مؤسسات تعليم اللغة العربية في باكستان

إن اللغة العربية لها مكانة خاصة في قلوب الباكستانيين لارتباطها الوثيق بالثقافة الإسلامية وبالقرآن بشكل خاص، وكذلك لاحتواء اللغة الأردية واللغات المحلية فيها —مثل: البنجابية والسندية والبلوشية والبشتوية– على كثير من المفردات العربية، ففي اللغة الأردية من أربعين في المائة إلى ستين في المائة من الكلمات العربية على اختلاف الإحصائيات [10].

وترجع رغبة الباكستانيين في تعلم اللغة العربية إلى عمق العاطفة الدينية لديهم، وهذه الرغبة كانت الدافع الأكبر على قيام دولة باكستان –وتعني الأرض الطاهرة– وكان استقلالها عن

بريطانيا وانفصالها عن الهند عام 1947م، وهذا الأمر كان له أثر كبير على إقبال الناس على القرآن الكريم قراءة –وتسمى عندنا "ناظرة"– وتعلماً وحفظاً، ففي باكستان والهند أعداد كبيرة من حفاظ القرآن الكريم تتجاوز أية دولة أخرى، علاوة على ما اشتهر بين الباكستانيين بأن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة، كما ورد في الحديث الذي لم تثبت صحته[11]. وانتشار اللغة العربية في باكستان لا يعود إلى رغبة المتدينين من الشعب فحسب، بل تتعدى إلى بعض الحكام من أصحاب الميول الدينية مثل الجنرال ضياء الحق الذي أمر عام 1978م بتعليم اللغة العربية كمادة أساسية في جميع المراحل الدراسية بدءاً من الصف الأول وحتى الصف العاشر، ولكن المنفذون لهذا الأمر من البيروقراطيين قصروه على ثلاثة مستويات أو مراحل فقط، تبدأ من الصف السادس وحتى الصف الثامن، وفي عهد الحكومات التالية اقتصر تدريس هذه اللغة على مرحلة واحدة أو مستوى واحد فقط وهو الصف السادس، وهذه المادة اليتيمة اليوم لا يهتم بها أحد ولا تحمل أي مستوى حقيقي يفيد الطلاب. ومن انجازات الرئيس الراحل ضياء الحق إنشاء الجامعة الإسلامية العالمية في العاصمة عام 1980م[12] التي تعتمد على هذه اللغة منهجاً في عدد من التخصصات وخاصة في الكليات الأساسية مثل كلية اللغة العربية وكلية الشريعة والقانون وكلية أصول الدين، علاوة على تدريسها في باقي كليات الجامعة وأقسامها حتى العلمية منها كمتطلب عام. كما أسست أقسام اللغة العربية في معظم جامعات باكستان الحكومية منها والأهلية. وعلى الصعيد الشعبي قامت المدارس الدينية المنتشرة في طول البلاد وعرضها –يزيد عددها عن عشرين ألف مدرسة– بدور كبير في تعليم اللغة العربية والأدب العربي فيدرس فيها الطلاب النحو والصرف والبلاغة والأدب، وكان للبعثات التي أرسلت إلى البلاد العربية المختلفة للدراسة وعودتهم حاملين الشهادات العليا والعلم الغزير واللغة العربية دور كبير في الارتقاء بهذه اللغة في باكستان. هذا ويستغل الباكستانيون فرصة وجود العرب في باكستان ليتعلموا منهم أي قدر يتيسر لهم من اللغة العربية، وذلك بشوق عظيم ورغبة شديدة، وذلك بسبب القرآن الكريم ومكانته في قلوبهم. وهنا لا بد من الإشادة بدور المؤسسات العربية التي تأسست خلال السنوات الثلاثين الماضية في باكستان التي فتحت معاهد لتدريس اللغة العربية، ولتحقيق هذا الغرض وفرت عدداً لا بأس به من المدرسين العرب، وأقاموا دورات اللغة العربية في مختلف أرجاء البلاد، كما أقاموا دوراً ومدارس للأيتام اعتمدت فيها المناهج العربية، وخاصة في مدينة "بيشاور" والمدن المجاورة، ولكن أكثر هذه المؤسسات أغلقت بسبب سياسات الحكومات الباكستانية الموالية لأمريكا في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى تراجع اللغة العربية في باكستان خطوات إلى الوراء بعد أن كانت قد حققت بعض التقدم، وهذه السياسات التي اتبعتها الحكومات المتعاقبة في باكستان كانت ضمن منظومة دولية هدفها التآمر على الإسلام وعلى لغة الإسلام.

تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة

نشهد في هذا العصر الذي نعيش فيه تطوراً ملموساً في كل شيء، وقد ظهرت تخصصات دقيقة لم يعرفها القدماء، ربما كانت لها جذور قديمة، وربما تحدث عنها أسلافنا بشكل أو بآخر، ولكنها لم تكن بهذا التقعيد والتنظير المعروف الآن، ولم تكن مجموعة في مكان واحد كما نشهدها اليوم وكما هو حالها اليوم. فعلى الصعيد اللغوي ظهرت نظريات لغوية حديثة كثيرة، تحت غطاء "الألسنيات" التي ظهرت في ساحة علم اللغة منذ خمسينيات القرن الماضي، وفيما يتعلق بتعليم اللغة العربية بدأت هذه النظريات تركز على مستوى المتعلم وطبيعته وعلى الأغراض التي من أجلها يتعلم اللغة العربية.

ومن خصائص الدراسات اللسانية الحديثة أنها تجمع بين اللغة وعلوم أخرى أهمها علمي النفس والاجتماع، وقد نتج عن ذلك فرع جديد في مجال تعليم اللغات يسمى تعليم اللغة لأغراض خاصة، وهذا المجال يتجاوز الكفاية اللغوية إلى الكفاية التواصلية؛ التواصل لتحقيق أغراض خاصة محددة.

ساهم تعليم اللغات الأوروبية وخاصة الإنجليزية في تطوير تدريس اللغة لأغراض خاصة، فظهرت لديهم نظريات جديدة في هذا التخصص، وأما اللغة العربية فقد تأخر دخولها في هذا الميدان، وقد بدأ المتخصصون في هذه اللغة بالاهتمام بها من هذا المنظور، ومن ذلك هذا المؤتمر الذي نشهده على أرض ماليزيا الرائدة الذي يبرز جهود العلماء في هذا المجال ويفتح آفاقاً واسعة أمام الباحثين والمتخصصين ليدلوا بدلوهم، ويقدموا ما يمكن أن يصب في النهاية في صالح اللغة العربية لغة القرآن.

ولنا أسوة حسنة في جهود علمائنا القدامى حين وظفوا اللغة العربية لخدمة القرآن الكريم والحديث الشريف وتعلم العلوم الدينية مثل الفقه وأصوله والتفسير وعلومه. كان الطالب إذا شرع في تعلم هذه العلوم يبدأ بتعلم النحو والصرف والبلاغة والأدب حتى يتمكن منها لينطلق إلى العلوم الدينية المختلفة يتعلمها بعد أن يتأسس جيداً في اللغة العربية.

أهم دوافع تعلم اللغة العربية في باكستان

يتعلم تسعون في المائة من مسلمي العالم اللغة العربية اليوم لأغراض دينية، ونسبة الباكستانيين الذين يتعلمون اللغة العربية لأغراض دينية وخاصة لغرض فهم القرآن أكثر من ذلك،[13] ويمكننا إدراك ذلك من أسماء الكتب التي تعلم اللغة العربية فنجد مثلاً كتاباً باسم "لغة القرآن" وأخر باسم "لسان القرآن" وهكذا. ولكن هذه الكتب رغم ما توحي إليه من أنها تعلم اللغة العربية لغرض خاص فإنها بعيدة كل البعد عن روح هذا النوع من التخصص، وتحتاج إلى أن يتولى أمرها متخصصون يدركون كنهه، فلا فرق بين هذه المناهج ومناهج تعليم اللغة العربية

لأغراض عامة سوى حشد هائل من الآيات القرآنية، وهي في هذا تسلك منهج القدماء وأساليبهم في التركيز على قواعد النحو والصرف، والأدهى أنها تبدأ عادة بقواعد الصرف قبل النحو، فيضطر الطالب إلى أن يحفظ هذه القواعد عن ظهر قلب دون فهم، وهذا منهج خاطئ في تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة، وقد نسي هؤلاء أن القدماء وضعوا تلك المناهج لمن كانت العربية لغتهم الأم.

إن تعليم اللغة العربية لهدف فهم القرآن في باكستان بالغ الدقة وبحاجة إلى خبرة وبصيرة، ولا بد من الاستفادة من تجارب السابقين —ولكن دون تقليدهم في كل شيء– فما يصلح لقوم قد لا يصلح لآخرين، فلكل لغة أسلوبها الخاص في تأليف كلماتها وتركيب جملها، وهذا الأمر له أثر على أسلوب التفكير. وتعليم اللغة العربية للناطقين بالأردية لأغراض خاصة ولغرض فهم القرآن الكريم بشكل خاص يتطلب منهجاً خاصاً لا بد فيه –أولاً وقبل كل شيء– مراعاة الفوارق والمشتركات بين اللغتين العربية والأردية، فكل لغة لها أسلوبها الخاص في تأليف كلماتها وتركيب جملها، وهذا الصنيع يطبع عقلية الدارس بطابع خاص، لأن أسلوب التفكير مستمد من أسلوب اللغة، فهما متلازمان تلازماً لا ينفك، وحتى ندرك هذه الحقيقة نذكر في هذا الصدد أن أساليب التعبير تختلف من فصيلة من الألسنة واللغات إلى أخرى، فاللغات السامية على سبيل المثال تشتمل على جمل خالية من الفعل، على حين لا بد من وجود فعل في كل جملة من جمل اللغات الهندية — الأوروبية، حتى ولو كانت جملاً اسمية[14].

كما أن أكثر الذين ألفوا، والذين يؤلفون مناهج تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة أو لغرض فهم القرآن في باكستان لا يراعون أعمار المتعلمين، فلا فرق بين الصغار والكبار في هذه المناهج، وهذا خطأ جوهري يجب التنبه له وتفاديه، فهذه المناهج بشكلها الحالي لا تلبي حاجة الناس في باكستان من الأعمار المختلفة، فهي إن وافقت في بعض أجزائها طائفة خاصة أو مرحلة معينة من العمر لا تناسب طائفة أخرى أو مرحلة أخرى من العمر. يقول الدكتور علي القاسمي: "ينبغي أن يختلف تعليم اللغة العربية للأطفال الذين هم في سن الخامسة عنه لليافعين الذين هم في سن الخامسة عشرة، فهناك فروق بين هذين النوعين من المتعلمين على المستويات الجسمية والعقلية ومن حيث الولوع والرغبات وطريقة التعلم المناسبة. إن عمر المتعلم يؤثر على الكتاب من حيث المحتوى والعرض"[15]. يعود الدكتور القاسمي بعد ذلك مباشرة ويقول مستدركاً إن عمر المتعلم قد لا يؤثر كثيراً على المحتوى اللغوي للكتاب في المراحل الأولى من تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، ولكن عرض المادة اللغوية يتأثر حتماً بعمر المتعلم، فالصغار يفضلون السرد على الوصف، كما أنهم أكثر تقبلاً للمحسوسات منهم للمفاهيم المجردة، وكذلك تثير المنبهات الحسية الصغار أكثر، ولذلك يفضل الاستعانة بوسائل الإيضاح المختلفة مثل الصور في تعليم هؤلاء اللغة العربية، وفيما يتعلق بتعليمهم هذه اللغة لغرض فهم القرآن يمكن الاستعانة ببعض المسلسلات المرئية التي تعرض فيها قصص القرآن الكريم كقصص الأنبياء وأخرى عن

الحيوانات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وهي متوفرة وفي متناول اليد في الشبكة الدولية وفي صورة أشرطة. وفيما يتعلق بالتراكيب النحوية والمعاني فالأطفال يفضلون استخدام الأمثلة في حين يحتاج الكبار إلى معرفة القواعد[16]، والصغار ليست لديهم رغبة كافية في فهم القرآن، بعكس الكبار. وإن كان مؤلفوا مناهج تعليم اللغة العربية لغرض فهم القرآن -في مجموعهم- يركزون على الكبار أكثر حين يضعون هذه المناهج، لذلك نجد نفَس هذه المناهج قصيراً، لأنها تركز على الكبار، ولا يملك هؤلاء الكبار الوقت الكافي لتعلم اللغة العربية، وإن وجدوا الوقت الكافي تنهار هممهم بسرعة لبعدهم عن اللغة العربية في حياتهم العملية، ولأن الأساس اللغوي عندهم يختلف عن الأساس اللغوي للغة العربية.

على الذين يتصدون لتأليف كتب ومناهج لتعليم اللغة العربية لغرض فهم القرآن أن يبدأوا بتعليم اللغة البسيطة في أشكالها السهلة الواضحة المباشرة، لأن لغة القرآن صعبة حتى على الناطقين باللغة العربية الذين يستعينون بالتفاسير والمعاجم في فهم معاني كثير من كلمات القرآن الكريم، فكيف بغير العربي، وإذا عملنا على تأسيس المتعلم على أسس متينة من اللغة العربية نكون قد أطلنا المنهج أو مدة التعلم، وهذا سوف يصرف هؤلاء عن تعلمها. والحل في الوسطية والاعتدال، فنتقي الله ما استطعنا ونعمل بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "سددوا وقاربوا"، فنبدأ باللغة البسيطة بقدر ما يسمح الوقت المخصص، ثم نبدأ بلغة القرآن، وحبذا لو فعلنا هذا مع كل قاعدة. وكذلك لا بد من إلمام موجز وسريع بقواعد الإملاء قبل الدخول في القرآن الكريم. ومن حسن حظنا أن الأردية تكتب بحروف عربية، ولذلك ليست لدينا مشكلة في تعلم كتابة الحروف العربية. على الذين يؤلفون هذه المناهج أو المقررات أن يراعوا اعتبارات أخرى عدا العمر، مثل الذاكرة وقابلية المحاكاة والذكاء والشخصية والخلفية ومدى رغبة المتعلم ووقته، فالكبار مشغولون في كسب معاشهم والصغار مثقلون بموادهم الدراسية.

والأدهى أن أكثر الذين يؤلفون مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بالأردية والذين يدرِّسونها لا يستطيعون التحدث بها، بل إن بعضهم إذا سمعوها من لسان عربي فصيح لا يفهمونها، لعدم معايشتهم لها في حياتهم العملية، وأكثرهم لم يدرسوا اللغة العربية بشكل منظم أي دراسة منظمة متدرجة، وإنما اعتمدوا في تأليفهم على علمهم الديني، وعلى الكتب الدينية المترجمة إلى اللغة الأردية وخاصة في التفسير. كما أن أكثر هؤلاء يركزون على مهارة واحدة من بين المهارات اللغوية الأربعة التي يهتم بها المعلم والمتعلم معاً، وهي مهارة فهم المقروء، ويغفلون فهم المسموع والمحادثة والكتابة، لأن الهدف هو فهم القرآن الكريم المكتوب، ولذلك نجدهم لا يركزون كثيراً على القراءة الصحيحة وعلى أسس القراءة الصحيحة، فلا يراعون قواعد التجويد، لأن هذا ليس هدفهم، وهذا أيضاً خطأ جوهري يقع فيه معلمو العربية لغرض فهم القرآن. من المفيد جداً لهؤلاء أن يتعلموا قواعد التجويد، ولكن بشكل مختصر حتى لا ينصرفوا عن فكرة تعلم اللغة العربية من أساسها. وكذلك لا بد من تخصيص وقت لسماع تلاوة القرآن الكريم، ففي كل

حصة أو محاضرة يسمع المتعلمون مجموعة من الآيات تختلف طولاً وقصراً حسب الوقت المخصص للحصة أو المحاضرة. إن الكتاب الجيد هو ذلك الذي يقدم العربية لغة ومضموناً، تكلماً وكتابة. نحن في باكستان اليوم –بشكل عام– نعاني من عدم وجود المعلم الكفء الذي هو أساس نجاح أي عملية تعليمية، ونحن نعلم أن أية عملية تعليم تعتمد على ثلاثة أسس هي: الطالب والمعلم والمنهج، وأهمها هو المعلم.

خلاصة البحث والتوصيات

أولاً: خلاصة البحث

يعود بقاء اللغة العربية حتى يومنا هذا وإلى قيام الساعة –أولاً وأخيراً– إلى أنها لغة القرآن الكريم، والقرآن هو الكتاب الذي أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب الإسلام الذي تدين به الشعوب الإسلامية في أكثر من أربعين دولة داخل هيئة الأمم المتحدة، ولا غرو فالأمم الإسلامية الآن وبخاصة العربية منها تتمتع بمركز ممتاز في مجال العلاقات الدولية. لذلك صار لزاماً على الدول العربية أن تنشط وتجدّ في سبيل نشر اللغة العربية وتيسير تعليمها وتقديمها للعالم في صورة جميلة جذابة، ولتحقيق ذلك عليهم أن يقيموا المؤسسات والمراكز وذلك من خلال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها داخل تلك الدول –أي الدول العربية– وخارج نطاقها. وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها يجب أن ترتبط بشكل خاص بالثقافة الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم الذي نزل بها كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[17]. يعد المسلمون اللغة العربية لغة مقدسة لارتباطها بالكتاب المقدس، فلا تصح الصلاة إلا بها، والصلاة عماد الدين، كما هي لغة التراث الإسلامي العظيم التي أنتجته عقول المسلمين خلال قرون عديدة، واللغة العربية كانت من أهم العوامل التي وحدت المسلمين عبر قرون طويلة تحت لواء الخلافة الإسلامية، وهي من أهم عوامل الوحدة بين العرب اليوم رغم انقسامهم السياسي، والتي يمكن أن تجمع بين المسلمين كلهم –شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً– من جديد، كما كانوا؛ أمة واحدة، دينها واحد ولغتها واحدة، فتجمع بين المسلم السعودي والمصري والباكستاني والهندي والأوروبي والأمريكي.. إلخ. فالمسلم يعد معرفة اللغة العربية أصلاً من أصول عقيدته وواجباً مقدساً يمكّنه من إدراك لأسرار القرآن الكريم وفهم معانيه، ووحدة العقيدة –كما نعلم– عامل مهم لتيسير وسرعة تعلم اللغة العربية[18]. بدأ الغرب قبلنا بتعليم اللغات لأغراض خاصة، فحققوا انجازات ضخمة يمكن الاستفادة منها في مجال تعليم اللغة العربية لأغراض خاصة. وما زال الطريق طويلاً أمامنا حتى نحقق شيئاً ملموساً، ولكن إذا خلصت النيات واستمرت الجهود فسوف نحقق تقدما واضحاً في هذا المجال إن شاء الله تعالى. وفيما يتعلق بتعليم اللغة العربية لأغراض خاصة في باكستان، فنحن متخلفون جداً في هذا المجال، لأن اللغة العربية في بلادنا ضعيفة جداً، والاهتمام الرسمي بها قليل.

ثانياً: التوصيات

- يجب أن نخطط للمدى البعيد، فنهتم بالصغار، فهم أسرع تعلماً من الكبار، وذلك بتهيئتهم مبكراً، وتعليمهم اللغة العربية لغرض فهم القرآن، حتى يتشكل لديهم الأساس القوي المتين.
- وضع مناهج لتعليم اللغة العربية للناطقين بالأردية حسب المستويات، التي يراعى فيها كل شيء، انطلاقاً من العمر.
- الاهتمام بالغرضين العام والخاص عند وضع مناهج تعليم اللغة العربية، وذلك بشكل متوازن.
- محاولة خلق بيئة لغوية قرآنية، حتى يسهل تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم.
- العناية بتطوير المناهج بين حين لآخر، مراعين فيها ظروف المتعلم، في هذا الصدد يمكن تشكيل لجان من متخصصين حقيقيين.
- لم يكن دور الحكومات الباكستانية كما يجب أن يكون فيما يتعلق بالاهتمام باللغة العربية، وأنا هنا لا أريد الدخول في السياسة، ولكني أهيب بالحكومات في البلاد الإسلامية، وبحكومتنا في باكستان بشكل خاص أن تستجيب لرغبات الشعب وتقوم بدور ريادي من أجل نشر اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، فتضع الخطط، وتشرف على البرامج، وتعقد الندوات والمؤتمرات، وتعمل على تدريب معلمي اللغة العربية وتطوير قدراتهم وإمكانياتهم، وخاصة من أجل فهم القرآن الكريم خدمة للدين الحنيف. وبدون هذا الغطاء الرسمي ستبقى المحاولات الفردية ضعيفة الأداء، قليلة التأثير، كما هو الوضع الراهن.

الهوامش

1- الروم:22.

2- الحجر:9.

3- "فقه اللغة وسر العربية"، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الملقب بأبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، 2008م، بيروت، ص25.

4- سورة الحج:32.

5- "الخط العربي وأثره الحضاري" د. محمد يوسف صديق، مقال منشور على الشبكة الدولية في موقع "نادي الإحياء العربي".

6- "المسالك والممالك"، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخرى المعروف بالكرخي (ت:346هـ)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص32.

7- "اللغة العربية في الهند عبر العصور"، الأستاذ خورشيد أشرف إقبال الندوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، عام 2008م، ص35.

8- "الشعر العربي في شبه القارة الهندية"، د. نبيل فولي، مقال منشور في مجلة الوعي الإسلامي الصادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، العدد 532، بتاريخ 3 سبتمبر 2010م.

9- المرجع السابق.

10- "الباكستانيون يقبلون على اللغة العربية لدوافع دينية"، مهيوب خضر، مقال منشور على الشبكة الدولية في موقع "إسلام ويب".

11- ونصه كالتالي: "أحبوا العربية لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي" رواه الطبراني في الكبير والأوسط،وهذا الحديث موضوع، فقد حكم عليه ابن الجوزي والذهبي بالوضع، وأدرجه الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة رقم 160.

12- تحدث الدكتور محمود محمد عبدالله بالتفصيل عن دور المؤسسات التعليمية في نشر اللغة العربية في باكستان في الباب الأول من كتابه "اللغة العربية في باكستان، دراسة وتاريخاً"، من منشورات وزارة التعليم الفيدرالية بإسلام أباد، ط1، 1984م، ص81-198.

13- "تجربة المنهج في معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض" للدكتور عبد الرحمن حسين، بحث منشور ضمن "وقائع ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها"، الجزء الثالث، مكتب التربية العربي لدول الخليج،1985م، ص67.

14- "الكتاب المدرسي لتعليم اللغة العربية للأجانب"، للدكتور عبد العزيز برهام، بحث منشور ضمن "السجل العلمي للندوة العالمية الأولى لتعليم العربية لغير الناطقين بها"، الجزء الثاني، حرره الدكتور محمود إسماعيل الصيني والدكتور على محمد القاسمي، عمادة شؤون المكتبات في جامعة الرياض، 1980م، ص120.

15- "الكتاب المدرسي لتعليم العربية لغير الناطقين بها"، الدكتور على القاسمي، بحث منشور ضمن "السجل العلمي للندوة العالمية الأولى لتعليم العربية لغير الناطقين بها"، الجزء الثاني، ص89.

16- المرجع السابق، ص89-90.

17- سورة يوسف:2.

18- "الكلمة الافتتاحية لمديرة مركز اللغات" ألقتها الدكتورة رشا الصباح عند افتتاحها الدورة التدريبية الأولى لمدرسي اللغة العربية لغير الناطقين بها بمركز اللغات في جامعة الكويت، أثبتت في "وقائع ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها"، الجزء الثالث، مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1985م، ص169-171.